

الهرمنيوطيقا و التشكل المعرفي : قراءة في تطور المفهوم من دائرة المقدس إلى دائرة العلوم الإنسانية

الأستاذة : زينب بومهدي
جامعة مولود معمري تيزي وزو

المخلص

مرت الهرمنيوطيقا في مسارها التاريخي بالعديد من المنعطقات التي ساهمت في تشكيل جهازها المعرفي ما أدى إلى تعدد المفاهيم والتعريفات التي قدمت لها وهذا بتعدد النظريات التأويلية ، ولقد ارتبط التأويل في بداياته وتعلق بالنص المقدس و ظل هذا الارتباط قائما إلى غاية العصر الحديث أين تشعبت الهرمنيوطيقا ، و توزعت في اتجاهات متعددة متجاوزة النص الديني إلى النص الفلسفي والأدبي و التاريخي ، أو النص الإنساني بصفة عامة ، ولم تصل الهرمنيوطيقا إلى هذا المستوى من البحث لولا جهود ثلة من الفلاسفة و المفكرين أمثال شلاير ماخر و دلتاي و هيدغر و غادامير وصولا إلى ريكور وغيره كثير.

و عليه فالهدف الذي نسعى إليه من خلال هذه المداخلة هو الكشف عن مفهوم الهرمنيوطيقا و جذورها التاريخية ، و كذا معرفة كيفية انتقال التأويل من النص المقدس إلى النص الإنساني وهذا في الفكر الغربي .

الكلمات المفتاحية : الهرمنيوطيقا ، التفسير ، التأويل ، هرمس ، النص المقدس

Summary

The Hermeneutics passed through its historical course with many turns that contributed to the formation of its knowledge apparatus, leading to multiplicity Concepts and definitions presented to it and this with a number of theories of interpretation, and has been associated with interpretation in its beginnings and related to the text of the sacred and the link continues until the modern era where the ramifications of the Hermeneutics, and

distributed in multiple directions beyond the religious text to The philosophical, literary and historical text, or the human text in general, did not reach this level of research without the efforts of a number of philosophers and thinkers such as Schillier Maher, Dilthey , Heidegger, Gadamer, Rikor and many others. Therefore, the goal that we seek through this intervention is to reveal the concept of Hermeneutics and its historical roots, as well as to know how the interpretation of the sacred text to the human text and this in Western thought.

Keywords: Hermeneutics, Interpretation, Interpretation, Hermes, Sacred Text

مقدمة :

يعد الفهم حاجة إنسانية عامة يسعى من خلالها الإنسان إلى استنطاق النص وفك رموزه ، مهما كان النص أدبيا أو فلسفيا أو دينيا و ما هذا الاستنطاق إلا وظيفة تضطلع بها الهرمنيوطيقا ؛ ولقد تأسس المشروع الهرمنيوطيقي في بدايته الأولى على قاعدة الرغبة في فهم النص الديني ، لتنتقل فيما بعد إلى فهم النص الإنساني و من هنا سعى هذا البحث للكشف عن تطور الهرمنيوطيقا و تشكيلها المعرفي و انتقالها من دائرة المقدس إلى دائرة العلوم الإنسانية ، ولهذا حاولنا في هذا المقال الانفتاح على العديد من المفاهيم حتى نجيب على الإشكالية التي فرضها علينا الموضوع وهذه الإشكالية هي : ما المقصود بالهرمنيوطيقا و كيف استطاعت أن تنتقل من دائرة اللاهوت إلى دائرة العلوم الإنسانية ؟

1. مفهوم الهرمنيوطيقا و المسار التاريخي :

1.1 في تحديد المفهوم :

يرجع المعجميون كلمة هرمنيوطيقا Hermenutics إلى اللفظ اليوناني hermeneuein وهو فعل يدل على عملية كشف الغموض الذي يكتنف شيئا ما¹؛ ومن اللفظ الإغريقي تم اشتقاق الكلمة الانجليزية hermenutics والتي أصبحت تعرف في إطار البحث الأكاديمي العربي بالهرمنيوطيقا ، فالهرمنيوطيقا لفظ كان يعني عند اليونان فن التأويل ، كما تستخدم الهرمنيوطيقا ككلمة مرادفة للتأويل التي تخص النظام والإشكاليات والمناهج التي لها علاقة بتأويل النصوص ونقدها ، وتستعمل الهرمنيوطيقا خصوصا في معرض الأعمال النثرية والشعرية من أجل الإشارة إلى مجموع مشاكل القراءة والفهم الخاصة بهذه الأعمال ، وتستعمل كذلك فيما يخص جميع درجات الأعمال الفنية والسرديات الأسطورية والأحلام ومختلف الأشكال الأدبية واللغوية معا².

ورغم أن مصطلح الهرمنيوطيقا لم يعرف إلا في القرن السابع عشر مع دانهاور Johann Dannhauer إلا أن هذا المصطلح قد عرفت منابعه في الفلسفة اليونانية ، فالهرمنيوطيقا لفظ كان يعني عند اليونان فن التأويل ، فالشعراء عند أفلاطون يؤولون الآلهة مثلما يفعل الكهان اللذين تتحدث الآلهة على ألسنتهم ، وعليه فأفلاطون يرى أن الشعراء هم مؤولون ، ووسطاء لهؤلاء الوسطاء بمعنى هم بدورهم مؤولي المؤولين ، وهنا يستخدم أفلاطون كلمة تأويل بمعنى تفسير كلمات الآلهة كما ينظر إلى الشعراء على أنهم مفسروا و مترجمو الآلهة و عند أرسطو تؤول اللغة الأفكار مساهمة في تجسيدها³؛ غير أن أرسطو استخدم التأويل بمفهوم مختلف عما

¹ فرناد هالين وشوبر ويخن ، من الهرمنيوطيقا إلى التفكيكية ، ترجمة : عبد الرحمان بوعلي ، مجلة المملكة العربية السعودية ، عدد 4 يونيو 1998 ، ص 73

² Encyclopedia ; universals v 8 ; métier ; hermentique

³ محمد المتقن ، في مفهوم القراءة والتأويل ، مجلة عالم الفكر ، أكتوبر ، ديسمبر ، العدد 2 ، مجلد 33 ، 2004 ، الكويت ، ص 26

استخدمه أفلاطون " ففي رسالته عن التأويل péri harmonias يعرف أرسطو التأويل بأنه إقرار أو إعلان énonciation قد يؤمى هذا التعريف إلى الاتجاه الأول للمعنى (يقول أو يعلن) ، غير أن المتعمق في النص لن يخفى عليه الاتجاه الثاني أيضا فالهرمنيوطيقا عند أرسطو تشير إلى العمل الذي يقوم به الذهن إذ يضع العبارات التي تتصل بصدق شيء ما أو كذبه ، التأويل بهذا المعنى هو العملية الأولية للفكر إذ يصوغ حكما صادقا عن شيء ما¹؛ وهذا ما يؤكد عليه حسن حنفي إذ يرى أن " لفظ الهرمنيوطيقا لفظ يوناني . ييري هرميناس . وضعه أرسطو جزءا من أجزاء المنطق و يعني به قضية العبارة و هذا الكتاب الثاني من كتب المنطق بعد كتاب المقولات؛ أي كيف يمكن تفسير العبارة"².

1. 2 هرمس و ميلاد الهرمنيوطيقا :

عند البحث و تقصي الجذر اللغوي لهذا المصطلح نجد أنه يتم الربط بين مصطلح الهرمنيوطيقا و بين اسم الإله هرمس Hermes إله الكلمة عند اليونان أو إله نقل الرسائل عندهم ، فكلمة هرمنيوطيقا كما سبق و أن قلنا هي مشتقة من الفعل اليوناني Hermene ، و الذي يعني عملية التفسير (التفسير كفعل) و معناه الاسمي Hermenia أي التفسير " و تتضمن الأشكال المختلفة لهذه الكلمة تفهيم شيء أو ظرف يلفه الغموض "³؛ و إلى هرمس يرجع اليونانيون اكتشاف اللغة و الخط باعتبارهما وسيلة نقل الأفكار و إيصالها للآخرين ، هرمس إذن هو رسول آلهة الألب " و الذي كان بحكم وظيفته يتقن لغة الآلهة و يفهم ما يجول بخاطر هذه

¹ عادل مصطفى ، فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامر ، رؤية للنشر و التوزيع ، 2007 ، ص 44

² حسن حنفي ، مجلة قضايا إسلامية معاصرة " كتاب الاجتهاد الكلامي " دار الهادي للطباعة و النشر ، بيروت ، ط 1 ، 2003 ، ص 315

³ أحمد واعظي ، ماهية الهرمنيوطيقا ، مجلة المحجة ، العدد 06 ، لبنان ، 2003 ، ص 13

الكائنات الخالدة ، ثم يترجم مقاصدهم وينقلها إلى أهل الفناء من بني البشر¹؛ و تطلعن الميثولوجيا اليونانية وخاصة كتاب الإلياذة والأوديسة لهوميروس أن هرمس كان يقوم بنقل رسائل الإله زيوس وهو كبير آلهة اليونان إلى غيره من الآلهة وحتى البشر ، فهو ينزل إلى مستوى أدنى من مستواه ويعبر بذلك " البون الفاصل بين تفكير الآلهة وتفكير البشر"².

كان هرمس بمثابة الجسر الرابط بين الإله زيوس وباقي الآلهة من جهة وبين الآلهة والبشر فهو من يشرح ويفسر رسائل الآلهة وهذا بتحويل مضمونها وماهيتها لأنها تفوق قدرة البشر على فهمها ، وهذا التحويل هدفه تمكين البشر من فهم وإدراك فحواها " وتجتمع مواهب هرمس في سمتين اثنتين الأولى هي الوساطة بين طرفين والثانية هي القدرة على استخدام الحيلة في الوصول إلى الهدف ، وكلاهما ضروري في عملية كشف الغموض التي يدل عليها اللفظ الإغريقي Hermeneuein فالغموض لا بد أن يكشف من خلال وسيط ، وهو يتطلب استخدام أدوات غير مألوفا كتلك التي يستخدمها هرمس"³.

فاسم الإله هرمس أصبح يرتبط في الفكر المعاصر بالأهداف الأساسية للتأويل أو الهرمنيوطيقا ولهذا اعتبر البعض من الدارسين أن " البناء الثلاثي لعملية التفسير شاهد صدق على هذا الاشتقاق ، وعلى العلاقة بين كلمة هرمنيوطيقا و هرمس الإله ناقل الرسائل لدى اليونانيين فكل شرح أو تفسير لا بد له من ثلاث أركان أو أضلاع :

1. العلامة أو الرسالة أو النص الذي يلزمه الفهم والتفسير

2. واسطة الفهم ، أو المفسر (هرمس)

¹ عادل مصطفى ، المرجع نفسه ، ص 24

² المرجع نفسه ، ص 24

³ أحمد زايد ، الهرمنيوطيقا وإشكاليات التأويل والفهم في العلوم الاجتماعية ، حولية كلية الإنسانية والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، العدد الرابع عشر ، 1991 ، ص 229

3. إيصال فحوى النص و معانيه إلى المخاطبين¹.

و عليه فالهرمنيوطيقا و باعتبارها فن الفهم و تأويل النصوص فإن خصائصها مماثلة لخصائص الإله هرمس فالهرمنيوطيقا هرمسية قلبا و قالبا رغم أنها كمفهوم عرفت اتساعا في القرن الثامن عشر و القرن العشرين لتشمل مناهج فهم النصوص الدينية و كذا الإنسانية ، إلا أن اللفظ بقي يشير إلى التفسير الذي يضطلع بكشف شيء مخفي و مستور ، شيء مضمرباطن في قلب النص يجعل القارئ يحاول جاهدا كشفه و إيضاحه ؛ و لقد استخدم أفلاطون Platon مصطلح هرمينيا Hermeneia في محاوره "أيون" و أيون هو شاب يقوم بتلاوة أشعار هوميروس ، و هذا من خلال تجويده و التلاعب بطبقات صوته فيصل بذلك المعنى إلى من يستمع إليه أكثر مما يدركه أو يفهمه و هنا تصبح وظيفة هذا الشاب قريبة جدا إلى وظيفة هرمس².

استطاع هرمس بقواه و قدرته الخارقة أن يربط بين عالمين مختلفين بين العالم الإلهي و العالم البشري ، و أن يعبر بكلمات مفهومة ينقلها إلى البشر ، و هنا كانت مهمة هرمس هي مد جسور التواصل بين هذين العالمين المتباعدين ، و يأتي هيدغر في كتابه " في الطريق إلى اللغة " ليؤكد تلك الصلة الوثيقة بين معنى الهرمنيوطيقا و بين شخصية هرمس لأن هذا الأخير هو رسول الآلهة ، كما أن الرسالة التي يحملها ليست بالرسالة العادية لأنه يحمل الخبر الصاعق و النبأ الجلل و التأويل في أسوأ معانيه هو أن تكون ذو قدرة عالية على فهم هذه الأنباء المقدورة ، و من ثم تصبح أنت نفسك رسول الآلهة تماما مثل هرمس³ ؛ فهيدغر يستعمل لفظة Hermeneutics بدل استعماله لمترادفات أخرى كلفظة Interpretation و هذا راجع إلى كون مشروعه الفلسفي قائم على محاولة لاستعادة فهم الوجود و استرداد الوعي به ، فهو يرى أننا قد فقدناه في هذا الزمن الحديث ، بل هو مفقود منذ زمن أفلاطون و أرسطو.

¹ أحمد واعظي ، المرجع نفسه ، ص 14² عادل مصطفى ، المرجع نفسه ، ص 36³ عادل مصطفى ، المرجع نفسه ، ص 28

غير أن غادامير يرى أنه يوجد نوع من الالتباس في الربط بين لفظ الهرمنيوطيقا وإله هرمس إذ يقول : "نجد في الاستعمال القديم للفظ نوعا من الالتباس ، فقد اعتبر هرمس Hermes رسول الآلهة إلى البشر كما أن الأوصاف التي دلّ عليها هوميروس تظهر غالبا أنه [أي هرمس] يبلغ حرفيا و ينجز كاملا ما أوكل إليه بتبليغه ... لا توجد دون شك أي صيغة لفه التقارب بين فن التأويل و الفن التكميني"¹؛ فهو و بعد أن ينفي هذا التقارب يصل إلى اعتبار أن الهرمنيوطيقا تدل على التفسير.

2 من التأويل اللاهوتي إلى التأويل الفلسفي الإنساني

1.2 هرمنيوطيقا النص المقدس :

ارتبطت الهرمنيوطيقا في بدايتها بالدراسات اللاهوتية و النص الديني بالتحديد فهي نشأت بين جدران الكنيسة ، و ارتبطت بإشكالية فهم دلالات الكتاب المقدس انطلاقا من الاعتقاد السائد عند الإنسان بوجود معنى باطن و خفي وراء المعنى الظاهر و السطحي في أي نص ديني ، وعليه يشير الكثير من الباحثين في الهرمنيوطيقا إلى أن محاولة فهم النص الديني المسيحي هي التي أدت إلى نشأة التأويل ، إذ كان لهذه النشأة في كنف اللاهوت و بين جدران الكنيسة ما يبررها ، خاصة إذا علمنا خطورة و صعوبة المشاكل التي واجهها كل أولئك الذين حاولوا أن يقدموا تفسيرات للإنجيل مختلفة عن تلك التي كانت متداولة رسميا بين الكليروس إذ "كان المجتمع المسيحي منذ القديم يواجه مشكلات هرمنيوطيقية من مثل تثبيت الإنجيل المنقول شفويا بواسطة الكتابة ، و تشكل مجموعة الشرائع السماوية ، و في آن واحد ، تعريف العلاقة بين العهد القديم و العهد الجديد ، و صياغة العقائد الأولى بمساعدة مفاهيم الفلسفة الإغريقية"².

¹ هانز غادمار ، فلسفة التأويل ، الأصول المبادئ الأهداف ، ترجمة : محمد شوقي الزين ، دار

الاختلاف ، الجزائر ، ط 2 ، 2006 ، ص 61 ، 62

² محمد المتقن ، المرجع نفسه ، ص 25

و لهذا عرفت الهرمنيوطيقا بأنها نظرية لتفسير الكتاب المقدس باعتبار أن العمل الهرمنيوطيقي كان يتمحور حول فهم النصوص الدينية ، و استخراج المعنى الكامن فيها ، و رغم أنه قراءة النص المقدس في العهدين القديم و الجديد عرفت اختلافا بين من رأى في ضرورة إعمال التأويل أمر واجب و بين من رأى في القراءة الحرفية للنص المقدس ، و من ثم قبول نصوصه على ظاهرها ، و سنبداً تحليلنا هذا ببعض مفكري اليهودية و تأويلهم للشرعية الموسوية ، فلقد أعجب هؤلاء و على رأسهم فيلون السكندري بالفلسفة اليونانية لأنهم رأوا فيها شرحاً للحكمة الموجودة في التوراة " إذ عمل فيلون السكندري على تأويل الشريعة الموسوية تأويلاً عقلانياً و التقريب بين ما انطوت عليه أسفار العهد القديم و بين الفلسفة اليونانية"¹.

و كان فيلون يؤكد على ضرورة التأويل بالباطن فالتأويل وسيلة ضرورية للفهم الحقيقي للنص الديني و حتى يحدث اتفاق عقلي منطقي بين ما هو موجود في النصوص الدينية و بين ما أنت به الفلسفة اليونانية* " لتتفق النصوص المقدسة مع الآراء الفلسفية الصحيحة في المسائل الدينية الجوهرية ، و بهذا يستطيع عن طريق التأويل المجازي أن يستخرج ما في التوراة من فلسفة لا يمكن فهمها عن طريق النص الحرفي"² ؛ و هو بذلك عمل على قراءة الإنجيل العبري بعيون فلسفية (فلسفة يونانية) و هذا ما جعله يقر أنه لا فرق بين حقيقة الفلسفة اليونانية و حقيقة النص المقدس ورأى أن النص لا يتضمن معنى واحداً بل يحمل عدة معاني ، و بذلك انحصرت مهمة الفلسفة عنده في التوفيق بين النقل و العقل أي بين ما

¹ عصام غصن عبود ، الأخلاق الدينية و مسألة التأويل عند ابن رشد ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد 20 ، العدد (1 + 2) ، 2004 ، ص 06

* إن الالتقاء الذي حدث بين اليهود و اليونانيون في مدينة الإسكندرية . بعد فتحها من قبل الاسكندر الأكبر. أحدث الجدل بينهم إذ كان اليونانيون يسخرون من الأساطير الواردة في التوراة ، في حين كان اليهود متمسكين بشريعتهم و ما جاء فيه هذا ما دفعهم إلى ضرورة تأويل النصوص المقدسة .

² موسى محمد يوسف ، بين الدين و الفلسفة ، دار المعارف ، القاهرة ، 1959 ، ص 116

جاء في الشريعة الموسوية وبين ما وصلت إليه الفلسفة اليونانية ، و حتى يصل إلى هذا التوافق اعتمد طريقتين الأولى تمثلت في إيمانه بأن ما جاءت به الفلسفة اليونانية مستمد من التوراة ، و الثانية العمل على تفسير وتأويل النصوص الدينية تأويلا رمزيا ، وهذا حتى تتناسب مع ما أقره العقل اليوناني في فلسفته .

و يسعى التأويل الرمزي عند فيلون " إلى اختراق حجب الدال ليبلغ المدلول الخفي و غير المرئي ، و هو نشاط و ممارسة ليس في متناول الجميع و إنما يقتضي السلوك الروحي و الباطني للتحكم فيه و الأخذ بزمامه ، يسلم فيلون بأن الخطاب الديني هو بالضرورة خطاب روحي و باطني ésotérique يشير إلى أشياء خفية و عوالم غريبة و مفارقة و أسرار باطنية و التأويل الرمزي و حده القادر على فك عقدها " ¹ . فكان إذا وقف عند نص مثل " الكاهن الأعظم يخلع رداءه قبل أن يدخل قدس الأقداس " يتأوله بقوله : إن الكاهن الأعظم هو النفس الإنسانية ، و خلع الرداء هو التخلص من سيطرة الجسم و المادة ، و الدخول إلى قدس الأقداس هو ارتقاء النفس إلى العالم العلوي " ² .

و إذا انتقلنا إلى المسيحية فإننا سنجد أن المسيحيين الأوائل قد ورثوا إشكالية كبيرة عن الهرمانيوطيقا اليهودية تمثلت في مسألة حرفية أو رمزية تفسير النص المقدس ، و لهذا عرفت المسيحية في البداية تشكل مدرستين إحداهما كانت في الإسكندرية و هي التي نادت بالقراءة الرمزية و المجازية للنص المقدس في حين كانت الثانية في مدينة أنطاكية و دعت للقراءة الحرفية للنص الديني ، لن ينصب اهتمامنا حول مدرسة أنطاكية و هذا لأنها لم تعتمد القراءات التأويلية و إنما سنأخذ أحد ممثلي مدرسة الإسكندرية و أبرزهم على الإطلاق ، و هو أوريجين "الذي انطلقت قراءاته التأويلية و الرمزية للإنجيل من مبدأ أن الكون مليء بالرموز و أنواع العالم

¹ محمد شوقي الزين ، الإزاحة و الاحتمال ، صفائح نقدية في الفلسفة الغربية ، الدار العربية

للعلوم ، ط 1 ، 2008 ، ص 47

² الموسوعة العربية : فيلون السكندري <http://www.arab.ency.com>

غير المرئي ، وأن كل الأشياء لها جانبان واحد ظاهر و واقعي وهو متوفر لدينا جميعا والأخر روعي و عرفاني معروف فقط للشخص الكامل¹.

تعمق اوريجين في فهمه للفلسفة اليونانية بمختلف مذاهبها و اتجاهاتها كالأفلاطونية و الأفلوطينية و كذا الفيثاغورية و رأى أن النص يحتوي على المعنى الحرفي أو المعنى التاريخي و المعنى الأخلاقي و المعنى الصوفي أو المعنى الروحي ، و رأى كذلك وجوب إتباع المعنى الباطني المجازي لأنه هو المعنى الأساسي فالمعنى الحرفي يقتل النص في حين أن المعنى المجازي يعمل على احيائه². فهو يتحدث هنا عن دلالة ثلاثية للنص المقدس تتمثل في : معنى حرفي و معنى نفسي و معنى روعي ، و مراتب هذه المعاني تأخذها حسب ترتيب الناس في درجات فهمهم و قدرة إدراكهم لمعنى أي نص مقدس فالمعنى الحرفي يكون لعامة الناس بينما المعنى النفسي يكون لخاصة الناس في حين أن المعنى الروحي فيكون لخاصة الخاصة .

و في العصور الوسطى انشغل المفسرون بوضع القواعد التي من خلالها يمكن فهم الكتاب المقدس فتم تقسيم المعاني التي يبحث عنها المفسر للكتاب المقدس ، و هذا في عهد القديس أوغسطين أسقف هيلانة إلى أربعة المعنى الحرفي و المغزي الأخلاقي و الدلالة الرمزية و التأويل الباطني ، رأى أوغسطين أن البحث الهرمنيوطيقي يقتصر على الفقرات الغامضة من الكتاب المقدس ، فالحاجة إلى التأمل الهرمنيوطيقي تظهر فقط حينما تعترضنا فقرات غامضة من الديني ، و عليه يهدف التأويل عند أوغسطين إلى إيضاح و تفسير المقاطع الغامضة من الكتاب المقدس " فهذا الأخير لا يحتاج إلى إنارة رمزية تعم أجزائه و تفاصيله لأنه خطاب واضح و بديهي و إنما يتطلب تفسيراً من أجل فهم و استيعاب دلالاته المستعصية على الإدراك"³.

¹ دافيد جاسبر ، مقدمة في الهرمنيوطيقا ، ترجمة : وجيه قانصو ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ط 1 ، 2007 ص 61 ، 62

² محمد مفتاح ، مجهول البيان ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 1990 ، ص 91

³ محمد شوقي الزين ، المرجع نفسه ص 47

" ثم توالى الكتب المولعة ببيان مناهج تفسير النص الديني ، انطلاقا من سنة 1517 تاريخ وضع مارتن لوثر تفسيره الجديد للكتاب المقدس في إطار حركات الإصلاح الديني ، و كانت جملة الاجتهادات مركزة على التفسير باعتماده فقه اللغة أو الفيلولوجيا"¹. كان اهتمام رجال الدين منصبا حول تفسير الكتاب المقدس ، وهذا الاهتمام بالضرورة سيحيل إلى فهم لغة النص ما جعل أبحاثهم تتعلق بالألفاظ و المعاني ، ففي " الواقع أن أية مساع علمية لم تكن تبذل لفهم النصوص الدينية باستثناء مباحث الألفاظ و المعاني و البيان مضافا إلى بعض الافتراضات الواهية ، حيث ساد التصور بأنه لا حاجة إلى شيء سواها في هذا الباب "². و هنا ستجده الهرمنيوطيقا و في هذا العصر و جهة لسانية و هذا باهتمامها بالفيلولوجيا (فقه اللغة) بغية تفسير النص المقدس، و توضيح ما هو غامض و هنا يصبح الهرمنيوطيقي " مترجم يجعل بفضل معارفه اللسانية الغامض قابلا للفهم ؛ وذلك باستبدال الكلمة التي لم تعد مفهومة بكلمة أخرى تنتهي إلى الحالة اللغوية الخاصة بالقارئ الذي يترجم له هذا الهرمنيوطيقي "³.

كان السؤال الذي فرض نفسه في الدوائر اللاهوتية هو حول كيفية النظر إلى الإنجيل هل يكون بالنظر إلى لغته الخاصة أم تقتضي قراءته وجود وساطة الكنيسة؟ و هنا ستأتي إجابة مارتن لوثر لتزعزع النظام التأويلي الذي كان سائدا ، و هذا بالاحتجاج عليه و الدعوة إلى الحرية في قراءة الإنجيل و تجاوز سلطة الكنيسة الكاثوليكية و ما كانت تفرضه من معاني " لقد كان لوثر هو الأول الذي انخرط في طريق مذهب تعدد المعاني في الكتاب المقدس ، و هذا يعني أن كل اختلاف في التأويل هو معطى سلفا و موجود في النص ، و قال بهرمينيوطقا متعددة الطرق في التأويل

¹ محمد الخراط ، التأويل من الاشتقاق اللغوي إلى النظرية ، مؤسسة مؤمنون بلا حدود ، ص 04

² دافيد جاسبر ، المرجع نفسه ، ص 63

³ عبد الكريم الشرفي ، من فلسفة التأويل إلى نظريات القراءة ، الدار العربية للعلوم ، الجزائر ، ط

تفيد في فهم تاريخ التأويلات بصفتها تداولاً لأفاق الماضي والحاضر¹؛ و عليه فإن المذهب البروتستانتي أدى دوراً مهماً في نشأة نظرية الاستقلال الدلالي للنصوص و هذا بإحداثه قطيعة نهائية مع ما كان يعرف بوساطة الكنيسة ، ليفتح المجال بذلك أمام توسع مفهوم الهرمنيوطيقا و انتقالها " من مجال علم اللاهوت إلى دوائر أكثر اتساعاً تشمل كافة العلوم الإنسانية"². وهذا ما سنعمل على توضيحه فيما يلي .

2.2 هرمنيوطيقا العلوم الإنسانية و الهرمنيوطيقا الفلسفية :

1.2.2 هرمنيوطيقا العلوم الإنسانية :

شهدت الهرمنيوطيقا في القرن التاسع عشر تطوراً و هذا مع مجموعة من الفلاسفة الألمان الذين سيكون لهم الفضل في جعل الهرمنيوطيقا كنظام فلسفي مستقل لأول مرة ، متجاوزة حدود النص الديني و هذا من خلال التغيرات الجذرية التي شهدتها التفكير الفلسفي ، ما سيجعل الهرمنيوطيقا أحد التيارات الأساسية في الفكر الفلسفي المعاصر ، و من هنا يمكن لنا التأكيد على أنه لا يمكن فصل السير التاريخي للهرمنيوطيقا عن مسيرة الفلسفة في أوروبا و في عصر التنوير بالتحديد و كان لفلسفة كانط بالتحديد أثرها الكبير في هرمنيوطيقا القرن التاسع عشر ، و هذا ما يراه بول ريكور فهو يقول " إن فلسفة كانط هي الأفق الفلسفي الأدنى للهرمنيوطيقا"³ و من هنا ستعرف الهرمنيوطيقا منعطفاً حاسماً في تاريخها و مع راهب بروتستانتي هو شلاير ماخر (1834.1767) ستحقق الهرمنيوطيقا نتائج كبيرة جداً ، و هذا من خلال مساعيه في التلفيق بين أسس المدرسة الرومانسية و فلسفة كانط حتى لقب أب الهرمنيوطيقا الجديدة ، و كانط التفسير .

¹ مصطفى تاج الدين ، النص القرآني و مشكلات التأويل ، مجلة إسلامية المعرفة ، العدد 14 ، 1998 ، ص 19

² نصر حامد أبو زيد ، إشكاليات القراءة و آليات التأويل ، الدار البيضاء المغرب ، ط 6 ، 2001 ، ص 13

³ نقلاً عن محمد مفتاح ، مجهول البيان ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط 1 ، 1990 ، ص 91

كانت جهود شلاير ماخر منصبه حول كيفية ترسيخ قواعد و أسس عامة لتفسير النصوص و هذا بتحرير المفسر من سوء الفهم ليبلغ فهما صحيحا ذا قيمة عالية "وبذلك يرجع له الفضل في تأسيس الهرمنيوطيقا الحديثة، بعد أن عمل على جعلها ذات دلالة منهجية تؤسس لنظرية الفهم الصحيح ، ليس للنص الديني فحسب و إنما النص في كل أبعاده : الاجتماعية و السياسية و القانونية و التاريخية و الفلسفية و الأدبية"¹؛ و حسب نصر حامد أبو زيد فإن شلاير ماخر قد أدخل الهرمنيوطيقا إلى مرحلة جديدة متجاوزا الهرمنيوطيقا التقليدية إذ أصبحت حاضرة في كل النصوص فهو الذي "نقل المصطلح من دائرة الاستخدام اللاهوتي ليكون علما أو فنا لعملية الفهم و شروطها في تحليل النصوص"². و معه انتقلت الهرمنيوطيقا من مجال كانت فيه تخدم علم خاص و هو علم اللاهوت إلى أن أصبحت علما قائما بذاته يتمركز حول الفهم و من ثم التفسير.

اعتبرت نظرية شلاير ماخر في الهرمنيوطيقا بمثابة رد على كل من التفسير الهيجلي للنص الديني على أساس أنه تجلي للروح المطلق في التاريخ ، و كذا على المفهوم المضاد و الذي عبر عنه فيورباخ حيث كان يرى أن النص الديني ما هو إلا شكل من أشكال الاغتراب الإنساني في الوجود ، ولهذا رأى شلاير ماخر أنه "ليس من المهم أن يكون النص الديني تعبيراً عن الروح المطلق أو عن اغتراب الإنسان ، ولكن المهم هو فهم النص الديني في ذاته بوصفه نصا يحتاج مثله مثل النص التاريخي و الأدبي للفهم"³.

إذن مع شلاير ماخر تمكنت الهرمنيوطيقا من اختراق علوم الروح (العلوم الإنسانية) و كانت المحاضرات التي ألقاها شلاير ماخر في عام 1819 بمثابة الإعلان الأول عن الخطوط العامة للتأويلية الحديثة التي نقلت اهتمامها من تفسير

¹ معتصم السيد أحمد ، الهرمنيوطيقا في الواقع الإسلامي ، ص 23

² نصر حامد أبو زيد ، المرجع نفسه ، ص 20

³ منة طلبة ، الهرمنيوطيقا المصطلح المفهوم ، مجلة أوراق فلسفية ، العدد 10 ، القاهرة ، 2004

النصوص بحثا عن المعنى إلى التركيز على عملية الفهم في حد ذاتها ، وكذا البحث عن القواعد و الشروط التي من خلالها تتم عملية فهم النص ؛ كان شلاير ماخر يعتقد أن كل نص هو "انجاز فردي يقوم به المؤلف و ينتهي إلى نظام لغوي"¹ ومن هذه الزاوية عمل على تقسيم النص إلى بعدين أحدهما لغوي (تأويل نحوي) يهتم بدراسة النص وهذا عن طريق لغة النص في حد ذاته ، وهذا بفهم خصائص تلك اللغة ، أما البعد الثاني فهو البعد الذاتي و هو ما يطلق عليه التأويل الذاتي ، و الذي يبحث بدوره في النص و يعمل على فهمه باعتباره جهد فردي مرتبط بالقدرات الذهنية و المواهب التي أبدعت هذا النص .

و عليه أصبحت الهرمنيوطيقا قائمة على أساس ضرورة فهم المؤلف و تجربته الفكرية حتى يتم فهم النص ، لأن النص هو بمثابة لغة و هي لغة المؤلف و عبارة كذلك عن تجربة لهذا المؤلف و هو ما يمكن اختصاره في البعد النحوي و البعد الذاتي ، و النص في نظره هو وسيط لغوي ينقل فكر المؤلف إلى القارئ و بالتالي فهو يشير في جانبه اللغوي إلى اللغة بكاملها ، و يشير في جانبه النفسي إلى الفكر الذاتي لمبدعه ، و العلاقة بين الجانبين علاقة جدلية لأنه كلما تقدم النص في الزمن أصبح غامضا لقارئه و هكذا لا يستطيع فهمه بشكل سليم و يصبح أقرب إلى سوء الفهم منه إلى الفهم السليم ، و عليه لابد من قيام علم أو فن حتى نتجنب هذا الفهم الخاطئ².

كانت هرمنيوطيقا شلاير ماخر بمثابة التمهيد لمن سيأتي بعده من الهرمنيوطقيين و بالأخص دلتاي W.Delthy (1833- 1911) حيث سيبدأ دلتاي من نقطة انتهاء شلاير ماخر و هذا بالبحث عن تفسير و فهم صحيح للعلوم الإنسانية ، و هنا اعتبر دلتاي الهرمنيوطيقا كأساس للعلوم الروحية (العلوم الإنسانية و الإنسانية و الاجتماعية) و هنا ستركز تفكير دلتاي حول التفرقة بين العلوم الطبيعية و العلوم الإنسانية و الدراسات التاريخية بالتحديد محاولا إيجاد منهج

¹ محمد شوقي الزين ، المرجع نفسه ، ص 47

² عادل مصطفى ، المرجع نفسه ، ص 156

للعلم الإنسانية كرد على الوضعيين الذين رأوا أن الحل الأمثل لكي تتخلص العلوم الإنسانية من تأخرها وتلتحق بالعلوم التجريبية ، عليها إتباع المنهج التجريبي وهذا سعيا للوصول إلى قوانين كلية يقينية و لهذا حاول دلتاي " أن يقيم العلوم الاجتماعية والإنسانية على أساس منهجي مختلف عن العلوم الطبيعية ، لقد كان صارما في فلسفته ورفض كلا من الوضعية و ميتافيزيقا الكانتية الجديدة"¹؛ وهنا رأى دلتاي أن طبيعة الظواهر الطبيعية تختلف عن طبيعة الحوادث و الظواهر الإنسانية كمل أن غاية العلوم الطبيعية هي تفسير الظواهر السيطرة عليها بينما غاية العلوم الإنسانية تتمثل في محاولة فهم الإنسان ، و الفهم لا يمكن أن يتم بالمنهج التجريبي لذا كان لابد من إتباع منهج مختلف ، تمثل في المنهج الهرمنيوطيقي لأن الطبيعة علينا تفسيرها في حين أن الروح لابد من فهمها . و من هنا جاء مشروع دلتاي لصياغة " منهج ملائم للعلوم المختصة بفهم التعبير الإنساني الاجتماعي و الفني و كان على وعي واضح بعجز المنظور الردي و الآلي للعلوم الطبيعية عن الإيفاد بهذه المهمة و الإمساك بجمع الظاهرة الإنسانية "².

و هكذا سيصبح التأويل مع دلتاي شكلا من أشكال الفهم و معه ستتجه الهرمنيوطيكا إلى مجال العلوم الإنسانية لتعتمد الفهم بدل التفسير السببي ، كما كانت محاولته هذه لصياغة نظرية في العلوم الإنسانية و هذا في سياق فلسفة الحياة ؛ قلنا في السابق أن هرمنيوطيكا دلتاي كانت امتدادا لمحاولات شلاير ماخر إلا أن ما أضافه دلتاي هو تعيينه " للغة كوسيط موضوعي بين المؤلف و المفسر ، بقوله أن هذه الأداة الموضوعية تصبح في حالة التعبير الأدبي تعبيرا عن الحياة نفسها أو المعاش الداخلي و هي الفكرة التي ستزداد وضوحا عند هيدغر في ربطه بين اللغة و الوجود "³. لقد لفت دلتاي إلى مسألة مهمة في البحث الهرمنيوطيقي تمثلت في تجربة الحياة للمفسر و التي سيكون لها الأثر الكبير في من جاء بعده ، و خاصة

¹ نصر حامد أبوزيد ، إشكاليات القراءة و آليات التأويل ، ص 24

² عادل مصطفى ، المرجع نفسه ، ص 158

³ منة طلبة ، المرجع نفسه ، ص 56

مارتن هيدغر و غادامير " الذين تأثروا به إلى حد كبير ، و اختلفا معه في نقطة البداية و كثير من النتائج فيما يرتبط بمفهوم الهرمنيوطيقا و أبعادها " ¹ . وهذا ما سنحاول توضيحه فيما يلي و لكن سنأخذ نموذج واحد من الهرمنيوطيقا الفلسفية و هو هانز جورج غادامير .

2.2.2 الهرمنيوطيقا الفلسفية :

كان غادامير من أهم تلامذة هيدغر و رواد الهرمنيوطيقا الفلسفية و هذا بتقديمه نظرية هرمينزطيقية أكثر اكتمالا و هذا بتكريس لمناقشة الحقول التأويلية مناقشة وافية فمعه "ستدخل الهرمنيوطيقا معركة جديدة مع دعاة الفن للفن و ستخرج الهرمنيوطيقا مع غادامير كما كان شأنها من قبل " ² ؛ شكل كتاب الحقيقة و المنهج أهم كتب غادامير و فيه قدم مسألتين أساسيتين و هما نقده للمنهج و رواه ديكرت و كانط و دلتاي ، و المسألة الثانية هي البحث عن الحقيقة بعيدا عن المنهج معتبرا أن المنهج يقوم في الواقع بتغريب الحقيقة و إبعاد القارئ أو المفسر عن النص ³ فهو يوزع مواضيع كتابه هذا على ثلاث مستويات و يعمل على استعراض رأيه الفلسفي حول كل من التفسير و الفهم في كل مستوى من هذه المستويات ، و هذه المستويات هي علم الجمال، و التاريخ و اللغة و يؤكد بذلك على أن "الفهم الموضوعي بالنحو الذي يطمح إليه أنصار الموضوعية في العلوم الإنسانية ، غير ممكن في أي من هذه المجالات الثلاث " ⁴ .

لم يكن غادامير يسعى إلى ما سعى إليه دلتاي للبحث عن المنهج الخاص بالعلوم الإنسانية كما بينا سابقا و لكنه حاول أن يدرك الحقيقة في العلوم الإنسانية بغض النظر عن المنهج لأن "الفهم و تأويل النصوص ليس من شأن العلم فقط و إنما ينمان بالفعل عن التجربة العامة للإنسان في العالم ، فالظاهرة

¹ نصر حامد أبوزيد ، المرجع نفسه ، ص 30

² منة طلبية ، المرجع نفسه ، ص 58

³ نصر حامد أبوزيد ، المرجع نفسه ، ص 41

⁴ أحمد واعظي ، المرجع نفسه ، ص 20

الهرمنيوطيقية ليست أصلاً مشكلاً منهجياً¹ و على هذا الأساس عمل غادامير على تحليل مفهوم الحقيقة في الأعمال الفنية و الفلسفية و التاريخية ، و هكذا سعت هرمنيوطيقا غادامير إلى الفهم لأن المسألة في نظره ليست بحثاً عن تقنيات الفهم بقدر ما هي إبراز لشروط إمكان الفهم ، كما اهتم غادامير بالجدل القائم بين العلوم الإنسانية من جهة و العلوم الطبيعية من جهة أخرى ، كما أنه قد رأى أن الاختلاف الحاصل بين جون ستيوارت مل و دلتاي هو تضاد بين مناهج موضوعية قائمة على نفس الافتراض المسبق و هو موضوعية المنهج أي الوصول إلى معرفة موضوع² . لم يكن غادامير يهتم كثيراً " للمشكلات العملية لصياغة المبادئ الصحيحة للتأويل ؛ انه يود بالأحرى أن يسلط الضوء على ظاهرة الفهم نفسه"³ .

ما يمكن التأكيد عليه كذلك أن الهرمنيوطيقا مع هايدغر و غادامير خاصة نحت منحى فلسفي خالص بل "إن الهرمنيوطيقا هي الفلسفة التي تطورت على طول محور هايدغر - غادامير"⁴ و لهذا لم يولوا أهمية إلى المنهج بقدر ما أولوا الأهمية لأنطولوجيا الفهم ، و لم تعد الهرمنيوطيقا فرعاً مساعداً للدراسات الإنسانية بل أصبحت نشاطاً فلسفياً يتم من خلاله تفسير الفهم على أنه عملية انطولوجية في الإنسان ، و من هنا استطاعت هذه المراجعات و كذا التفسيرات الجديدة أن تخرج صنف جديد من النظريات التأويلية تمثلت في الهرمنيوطيقا الفلسفية التي عبر عنها غادامير مؤلفاته. و على عكس دلتاي نجد أن غادامير و من خلال تحليله لماهية الفهم و تأويله و ظروفه الوجودية و هذا في نطاق العلوم الإنسانية يصل إلى أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة عن طريق المنهج ، بل ينبغي النظر إليها بشكل متفاوت عما هو

¹ Gadamer. H.G, Verite et Methode , les grandes lignes d'une herméneutique philosophique , Edition du seuil , 1976 , p 20

² هانز جورج غادامير ، بداية الفلسفة ، ترجمة : حسن ناظم ، علي حاكم صالح ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ، ط 1 ، 2002 ، ص 26

³ عادل مصطفى ، المرجع نفسه ، ص 277

⁴ نقلاً عن محمد الخراط ، المرجع نفسه ، ص 07

عليه في التراث الفلسفي و العملي لأن الاهتمام بالمنهج بشكل كبير سيعمل على تأخيرنا في الوصول إلى الحقيقة ، كما أن هذا الاهتمام سيبعدنا أكثر عن موضوع الدراسة¹ ؛ فالحقيقة مع غادامير لا تطلب منهجيا بل جدليا لأن المنهج لا يمكنه أن يكشف لنا الحقيقة .

خاتمة :

و في الأخير يمكن القول أن هذا البحث قد قادنا إلى إدراك ذلك التحول الكبير الذي مس الهرمنيوطيقا فبعد ما أن كانت مرتبطة بالدوائر اللاهوتية و انطلقت مسيرتها منها انتقلت إلى مجال أوسع من ذلك و هذا مع التطور الفكري و العلمي ، حيث استطاعت أن تتجاوز هذا المجال إلى دوائر أوسع معبرة عن تحول في العقل التأويلي الذي أصبح يهتم بما يشغل الفلسفة الحديثة و المعاصرة ، و هنا كانت الهرمنيوطيقا الفلسفية مع هيدغر و غادامير و التي طرحت أفكارا جديدة حول ماهية الفهم الإنساني كما أنها أوجدت تحديات في وجه الفلاسفة و حتى النقاد الأدبيين .

قائمة المراجع :

- 1 أحمد واعظي ، ماهية الهرمنيوطيقا ، مجلة المحجة ، العدد 06 ، لبنان ، 2003
- 2 أحمد زايد ، الهرمنيوطيقا و إشكاليات التأويل و الفهم في العلوم الاجتماعية ، حولية كلية الإنسانية و العلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، العدد الرابع عشر ، 1991
- 3 حسن حنفي ، مجلة قضايا إسلامية معاصرة " كتاب الاجتهاد الكلامي " دار الهادي للطباعة و النشر ، بيروت ، ط 1 ، 2003
- 4 دافيد جاسير ، مقدمة في الهرمنيوطيقا ، ترجمة : وجيه قانصو ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ط 1 ، 2007

¹ أحمد واعظي ، المرجع نفسه ، 21

- 5 عادل مصطفى ، فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامر ، رؤية للنشر والتوزيع ، 2007
- 6 عصام غصن عبود ، الأخلاق الدينية و مسألة التأويل عند ابن رشد ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد 20 ، العدد (1 + 2) 2004
- 7 عبد الكريم الشرفي ، من فلسفة التأويل إلى نظريات القراءة ، الدار العربية للعلوم ، الجزائر ، ط 1 ، 2007
- 8 فرناد هالين و شوبرويخن ، من الهرمنيوطيقا إلى التفكيكية ، ترجمة : عبد الرحمان بوعلي ، مجلة المملكة العربية السعودية ، عدد 4 يونيو 1998
- 9 موسى محمد يوسف ، بين الدين والفلسفة ، دار المعارف ، القاهرة ، 1959
- 10 محمد شوقي الزين ، الإزاحة والاحتمال ، صفائح نقدية في الفلسفة الغربية ، الدار العربية للعلوم ، ط 1 ، 2008
- 11 محمد المتن ، في مفهوم القراءة والتأويل ، مجلة عالم الفكر ، أكتوبر ، ديسمبر ، العدد 2 ، مجلد 33 ، 2004 ، الكويت .
- 12 محمد مفتاح ، مجهول البيان ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 1990
- 13 مصطفى تاج الدين ، النص القرآني ومشكلات التأويل ، مجلة إسلامية المعرفة ، العدد 14 ، 1998
- 14 منة طلبة ، الهرمنيوطيقا المصطلح المفهوم ، مجلة أوراق فلسفية ، العدد 10 ، القاهرة ، 2004
- 15نصر حامد أبو زيد ، إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، الدار البيضاء المغرب ، ط 6 ، 2001
- 16 هانز جورج غادامير ، بداية الفلسفة ، ترجمة : حسن ناظم ، علي حاكم صالح ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ، ط 1 ، 2002
- 17 هانز غادمار ، فلسفة التأويل ، الأصول المبادئ الأهداف ، ترجمة : محمد شوقي الزين ، دار الاختلاف ، الجزائر ، ط 2 ، 2006
- 18Gadamer. H.G,Verite et Methode , les grandes lignes d'une herméneutique philosophique , Edition du seuil , 1976
- 19Encyclopedia ; universals v 8 ; métier ; hermentique